قراءةٌ في كتاب:

حقوقُ الإنسانِ عندَ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) - رؤية علمية

نبيل علي صالح[1]

ملخّص

اهتمَّ التفكيرُ الإسلاميُّ المعاصر بموضوع "حقوق الإنسان في الإسلام"، حتى باتَ هذا المطلبُ جزءًا أساسيًّا من أدبيات ومنظومة القيم الحُقوقيّة الإسلاميّة، التي جاءَ قسمٌ منها ردًّا على اتهامات الاستشراق الغربي للإسلام في كونه فارغَ المضامين الإنسانية، وادِّعاء أن الإسلام لا علاقة ذاتية وموضوعية له بمبادئ حقوق الإنسان التي ظهرتْ في الغرب الحديث الذي كانَ لهُ -كما يزعم- قصبُ السَّبق فيها..!!.

قدَّمَ هذا الكتابُ الذي بينَ أيدينا هنا رؤيةً فكريةً تاريخية وحداثية راهنة مهمّة حولَ مرحلة زمنية من تاريخنا الإسلامي، كانَ المبدأ الإنساني الحقوقيُّ أبرزَ تجلّياتها العملية في سياق التعاملات والمعاملات والعلاقات الاجتماعية والسياسية، وهي مرحلة حُكْم الإمام علي عليه السلام للدولة الإسلامية، التي أعطى في قيادته وممارساته السياسية وغير السياسية لها أنموذجًا حيًّا وفذًّا لمعاني القيم الإنسانية قبل أن تظهر في الغرب بعدة قرون. وقد لاحظنا أنَّ الكاتبَ نجحَ في استعراض هذه الممارسات القيمية الإنسانية والحقوقية لقائد الدولة ورجالاتها ومؤسساتها، وتقديم رؤية متطوِّرة ومعاصرة لفكر الإمام علي عليه السلام الحقوقي والإنساني.

الكلمات المفتاحية:

الإمام علي - حقوق الإنسان - الحضارة الإسلامية - الغرب.

---

1 - كاتب وباحث سوري.

بطاقة الكتاب:

اسم الكتاب: حقوق الإنسان عند الإمام علي بن أبي طالب (ع) - رؤية علمية.

اسم الكاتب: د. غسان السعد.

الناشر: العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية - العراق/بغداد.

رقم الطبعة: طبعة ثانية/عام 1431هـ - 2008م.

عدد صفحات الكتاب: 527 صفحة مع الفهارس ولائحة المصادر والمراجع.

المقدّمة:

انشغلَ التفكيرُ الإسلاميُّ خلال العقود القليلة الماضية بموضوع مبادئ حقوق الإنسان، في محاولة منه لإظهار المبادئ الأساسية لهذه الحقوق وفقًا للنصوص الدينية الإسلامية، سواء أكانت قرآنية أم حديثية أم من خلال سيرة الرسول الكريم ﷺ والأئمة الأطهار (عليهم السلام)، وقد جاءتْ وظهرت تلك المحاولات -في بعض حالاتها- كردّة فعل على ما ظهرَ في عالم الغرب الحديث من إعلان أوَّلي لمبادئ حقوق الإنسان، ترافَق مع اتِّهامات وُجِّهت للإسلام بأنه دينٌ شمولي غير إنساني، لا يحترمُ حقوقَ الإنسان، ولا يُقيم وزنًا ولا اعتبارًا سوى للجماعة على حساب الفرد! وهذه الاتِّهامات دفعَت كثيراً من المفكرين والعلماء المسلمين لمواجهتها من خلال توثيق تلك الحقوق، بالاستناد للرؤية الإسلامية، بما يُؤدِّي إلى إثبات أصالة البعد الحقوقي الإنساني في صلب العقيدة الإسلامية.

ولكن يجب الاعتراف -حقيقةً- أن تلك المبادئ الحقوقية الإنسانية (المؤصَّلة نظريًّا ضمن النصوص الإسلامية) لم تَنَلْ حقَّها (بحكم أولويتها) في حركة الفكر الإسلامي على مستوى الاستنباط والاستخراج والإظهار العلمي الموثَّق، ويأتي هذا الكتابُ -الذي نحنُ بصددِ قراءته ومراجعة أفكاره، وأهم ما جاء به من إضاءات حقوقية- ليكونَ من ضمنِ هذه المحاولات النوعية المُهمّة، التي تُسلِّط الضَّوء على منظومة مبادئ حقوق الإنسان في فكرِ الإمام علي عليه السلام.

ينطلقُ الكاتبُ (غسان السعد) في كتابه هذا من فرضية مفادها: «أنّ للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام رؤيةً مميَّزة لحقوق الإنسان، تتَّسمُ بالشُّمولية والعُمق والتطبيق العملي لتلكَ الحقوق من جهة، كما يُمكِنُ الاستفادةُ من هذه الرؤية لمعالجة إشكالية حقوق الإنسان في واقعنا المعاصر، من جهة أخرى»[1]. وقد جاء الكتاب على عدة فصول وهي:

الفصلُ الأوّل: في مكانةِ الإمامِ علي بن أبي طالب عليه السلام وتطوُّر مفهوم حقوق الإنسان

يقسمُ الكاتبُ هذا الفصل إلى مبحثين، يُلقي الضوء في الأول منهما على مكانة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، مستعرضًا قَبَساتٍ من حياتِه المباركة .. وفي المبحث الثاني يبحث في تطوُّر مفهوم حقوق الإنسان. ويُمهِّدُ الكاتبُ في هذا الفصل لفكرة حقوق الإنسان عند الإمام علي عليه السلام، وذلك من خلال مدخل تاريخي من خلال أولاً: إعطاء وَمضة عن حياة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .. وثانيًا: من خلال الإجابة عن سؤال: «ما القيمة القانونية والتَّشريعية لآراء الإمام ومواقفه، وما قدَّمه من مفاهيم وممارسات، ولا سيَّما في مجال حقوق الإنسان؟..»[2].. حيث يعتقد الكاتبُ أنَّ تجربةَ الإمام عليه السلام هي ترجمة لروح الإسلام الحنيف، التي تَحمِلُها النُّصوصُ المُقدَّسة الواردة في الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة، وكان دور أمير المؤمنين عليه السلام دورَ المُنفذ للأطروحة السماوية.

وفي سياقِ تحليله لحياة الإمام علي عليه السلام يُبيِّنُ الكاتبُ أنَّ الإمامَ علي عليه السلام تَعرَّض لأشنع حملات التَّضليل والتَّحريف والتَّشويه الفكري والشخصي، على مستوى «منع ذِكر مناقب ومزايا الإمام الشخصية أينما وَردت.. وتضخيم دور مُناوِئيه في محاولةٍ لخلق البديل .. إلى تشويه

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي - رؤية علمية، ص7.

2 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي - رؤية علمية، ص.ص.11-12.

التجربة السياسية العَلَوية .. وإضافة أحداث وحوارات وشخوص أُقحمت في التاريخ .. إلى تسطيح وتهميش دور الإمام في البناء والرُّؤى الإسلامية للواقع السياسي، وخاصة فـــي مجال حقوق الإنسان ..»[1]، ولم يكتفِ رموزُ دولة المُلك العَضوض يومَها بمظاهر التَّحريف والتَّشويه لسيرة الإمام علي عليه السلام، بل قاموا باختلاق الأحاديث ضدَّه، حيث انتشرت يومَها ظاهرة الوَضَّاعين، حتى قيل: «ما كُذِبَ على أحدٍ من هذه الأمة، ما كُذِبَ على عليٍّ بن أبي طالب .. والأسباب كثيرة، سياسية، نفعية، عقدية، نفسية..»[2].

وفي معرض استعراضه لحياة الإمام عليٍّ عليه السلام المباركة، يُشير الكاتبُ إلى مصادر المعرفة العُلْويّة للإمام، وهي القرآن الكريم -وقد استوعَب الإمامُ دقائقَه- والسُّنة النبوية التي امتزجَت مع القرآن في كيان فكري واحد .. ولا شكَّ بوجود مصادر وينابيع أخرى أسهمت في التكوين الثقافي للإمام عليّ، وكانت – بحسب الكاتب - ذات شقَّين: "الشق الأول منهما: الأُسرة والعشيرة والبيئة العربية بوجه عام، والهاشمية منها بوجه خاص .. أما الشق الثاني: فهو اهتمامه عليه السلام بالتاريخ الإنساني بصورة تُثير الإعجابَ، حيث يَعُدُّه مدرسةً للتعلم.."[3]. ويُنهي الكاتبُ مبحثَه هذا عن حياة الإمام علي عليه السلام ومكانته بالإشارة إلى أن تجربة الإمام علي عليه السلام، التي تُعَدُّ من أغنى وأثرى التجارب في تاريخ الإسلام، وقد جاء هذا الثَّراء والغِنى من: الزَّخم الجَوهري لشخص الإمام علي.. والأحداث المهمة التي مرَّت بحياة الإمام.. والموروث العلمي والحضاري من أفعال الإمام وأقواله... إلخ.

وفي المبحث الثاني من الفصل الأول، يبحث الكاتب في موضوع تطوُّر مفهوم «حقوق الإنسان» .. حيثُ يستعرضُ على عُجالة مراحلَ تطوُّر فكرة حقوق الإنسان وتطبيقاتها في الحضارات البشرية، من حضارة وادي الرافدين، إلى الحضارة المصرية، مرورًا بالحضارتين اليونانية والرومانية، وصولاً إلى عصور الأنوار والتَّنوير والحداثة الغربية .. إلى أنْ تمَّ إقرار مبادئ حقوق الإنسان في العام 1948م من قِبَل «الأمم المتحدة» عبر «ميثاق وإعلان عالمي»..

وبعد هذا الاستعراض التاريخي المكثَّف، يُؤكِّد الكاتبُ في معرض حديثه عن «الإعلان

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي - رؤية علمية، ص13.

2 - م.س.، ص17.

3 - م.س.، ص27.

الحقوقي الأممي» السابق، على أنَّ: «النَّموذج الحضاريَّ الغربي في مجال حقوق الإنسان، على الرغم من بعض سلبياته، هو النَّموذج الواقعيُّ الأقوى، والذي يُلقي على عاتق بقية الأمم بشكل عامٍّ والأمة الإسلامية منها بشكل خاصٍّ -كونها صاحبة مشروع حضاري- مسؤوليةَ تقديم نموذجها النظري، والممارسة العملية كذلك، وذلك سعيًا للتكامل في خدمة الإنسان وحقوقه»[1].

ورغم إشادة الكاتب بـ «ميثاق (إعلان) حقوق الإنسان العالمي» فهو يرى أنَّ مبادئ هذا الإعلان غامضة وغير مفهومة، رغم حديث مثقَّفي الغرب عما يُسمَّى بفكرة القانون الذي تأتي في سياقه فكرةُ الحقِّ الطبيعي .. وهذا أمرٌ غير موجود في بِنية التفكير الإسلامي حول هذا الموضوع، حيث يعتقد الكاتبُ أن الإسلام حلَّ هذه الإشكالية، و"تجاوز هذه السلبية، وذلك بعودة مَصدرية مُعظَم الحقوق إلى الشريعة الإسلامية، سواء القرآن الكريم أم السنة النبوية، وكذلك التجارب الإسلامية العملية، وهذا مما يدعمُ النموذجَ الإسلامي الحضاري لحقوق الإنسان"[2].

الفَصلُ الثّاني: الحُقوقُ الأساسيّةُ عندَ الإمام علي عليه السلام

يشيرُ الكاتبُ في هذا الفصل إلى أهمِّ الحقوق التي تناولها الإمامُ عليٌّ (ع) في فكره وتطبيقاته العملية.. ويُوثِّق هنا لثلاثة حقوق أساسية، وهي: حق الحياة، وحق المساواة العادلة، وحق الحرية..

1 - حقُّ الحياة

يعتقد الكاتبُ أن الإمام علي عليه السلام يَنظر للإنسان نظرةَ أفضل الموجودات والمخلوقات، إذا ما حقَّق إنسانيتَه .. وأنه يجب المحافظة على حياته بأيِّ ثمن.. فلا يُوجد أهمُّ من الحياة، وأن إنهاء حياة الإنسان هو جريمة بحقِّ الإنسانية جمعاء، وسلب لحق أساسي من حقوق الإنسان ألا وهو حقُّ الحياة، لذا فإن الإمام نظرَ إلى القَتلِ بأنه جريمة كبرى، فيقول عليه السلام: «إنَّ من الكبائر الكُفرَ بالله، وقَتلَ النَّفسِ».. ويُشدِّد الكاتبُ على أن من بين المميِّزات الرئيسية للرُّؤية العلوية لحقوق الإنسان تبرز مسألة تقديسه عليه السلام للحياة، وانعكاس ذلك على إقراره مبدأ مسؤولية الحكومة والمجتمع اتِّجاه حياة الإنسان، وأنه 'لا يبطل دم امرئ مسلم'، وأنّ 'الدم لا يبطل في الإسلام'

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص48.

2 - م.س.، ص48.

.. ويشيرُ الكاتبُ إلى أن «الانعكاس العملي لهذا المبدأ كانَ على صعيدَين: الأول حفظ دماء المسلمين، وإن كانوا في غير بلاد الإسلام، والثاني حفظ دماء مَن هم تحت حكم الإسلام كافّةً، وبغض النظر عن ديانتهم وانتماءاتهم»[1].

2 - حقّ المساواة العادلة

يعتقد الكاتبُ أنَّ الإمام علي عليه السلام كانَ يتعاملُ مع المساواة والعدالة من منطلقين: الأول: حق المساواة الإنسانية للجميع، الثاني: العدالة أي وضع الشيء محله .. وهذا ما طبَّقه الإمام علي عليه السلام وسلكه في كل حياته، حتى عندما أصبح قائدًا وحاكمًا للدولة الإسلامية .. فقد كان فِكرُ الإمام وسياسته كلها مبنية وقائمة «على تحويل هذا المبدأ إلى واقع ملموس في حياة الإنسان، ذلك أن المساواة العادلة عند الإمام لم تكن مجرَّدَ شعار يُرفَع ولا كلمة تُقال، بل هي جهد يُبذَل وعَملٌ يُعمَل، ومفهوم يَطبَّق في المجتمع تطبيقًا جادًّا بلا مفاوتة بين إنسان وإنسان، وبلا ترخُّص لإنسان دون إنسان»[2]، ويذكرُ الكاتبُ عدة أبعاد لمعنى ومضمون المساواة العادلة عند الإمام علي عليه السلام، وهي: البعد الإنساني، والبعد الاجتماعي، والبعد الاقتصادي، والبعد السياسي...

3 - حقُّ الحُرّيّة

يُبيِّنُ الكاتبُ أنَّ الإمامَ علي عليه السلام ينظرُ لمسألة الحُرية الإنسانية كطرف فاعل وجوهري في معادلة الوجود البشري، ويُؤمن عليه السلام أن الحرية تنبع أولاً من داخل الإنسان، يقول عليه السلام: «لا تكنْ عبدَ غيرك، وقد جعلَكَ اللهُ حُرًّا»، وهنا يُحمِّل الإمامُ الإنسانَ مسؤوليةَ نيل الحرية والمحافظة عليها. والحريةُ في فكر الإمام عليه السلام ليستْ فكرية فقط، بل سياسية واجتماعية ودينية عقدية وغيرها .. ويعتقدُ الكاتبُ «أنَّ الإمام بلغ غايةَ الحرية في فهم نصوص الإسلام من مختلف جوانبه، إذ قال عن أهمِّ دعامات الإسلام: 'القرآنُ حمّالٌ ذو وجوه'، وكذلك دعا الإمام إلى شحذ الذِّهن وتوظيف العلم من أجل استيعاب وشرح آيات القرآن الكريم وعدم الوقوف عند شرح أو فهم دون احتساب لعامل التطوُّر والزَّمن، إذ قالَ عليه السلام: «إنَّ القرآنَ ظاهرُه أنيقٌ وباطنُه عَميقٌ، لا تَفنى عجائبُهُ ولا تَنقضي غرائبُه»[3]، وهذه الفكرة بحاجة إلى تفصيل وتعمُّق فلسفي وفقهي متخصِّص؛ لتلافي

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص63.

2 - م.س.، ص77.

3 - م.س.، ص123.

الوقوع في الفخاخ الاستشراقية التي تُفرِّغ القرآنَ الكريم من مضمونة مثل أفكار: الهرمانوطيقا، والثابت والمتغيِّر و...

الفَصلُ الثّالث: الحُقوق السّياسيّة

وفيه أربعة مباحث، يتحدَّث فيها الكاتبُ عن الحقوق السياسية للفرد التي تُنظِّم علاقتَه بالدولة ومؤسساتها ومختلف هياكلها الإدارية، وهي: حقُّ حرية الرأي والتعبير، وحقُّ المشاركة السياسية، وحقُّ ضبط الحكام، وحق المعارضة السياسية.. ويُبيِّن الكاتب أنَّ من السمات الواضحة في تجربة الإمام علي السياسية، «هو سعيُه الحثيث نحو إيجاد وتوسيع دائرة الحرية السياسية، بفتح باب الحوار أمامَ الأفراد والجماعات حرصًا منه على حرية المجتمع وأسباب تطوره.»[1].

ويذهب الكاتبُ أن السلطة عند الإمام هي للشعب، والناس، والمجتمع، على مستوى المشاركة والشورى والبَيعة واختيار الحُكّام و ... إلخ .. وهذا ما يُبيِّنه لنا الكاتبُ، حيث يُوثِّق لنا من سيرة الإمام (عليه السلام) الكثيرَ من الأحداث والروايات التي تُثبتُ ذلك، «فقد رُوي عنه قوله (عليه السلام): 'إنَّ هذا أمرُكم ليسَ لأحدٍ فيه حقٌّ إلا مَن أمَّرْتُم'.. فهذا النصُّ المتعلِّق بالأمر يُفهَم منه أن العمل والمنهج الفكري والأداء السياسي يجب أن يَنبع من الأمة؛ وليس حكرًا على فرد أو طبقة خاصة، بل هو حقٌّ أصيل لها، ففي خطاب سياسي ذو أهمية خاصة يقولُ الإمام: 'أعظَمُ ما افترضَه سبحانه.. حقُّ الوالي على الرَّعية، وحقُّ الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله -سبحانه- لكلٍّ على كلٍّ، فجعلها نظامًا لأُلفتهم، وعزًّا لدينهم، فلا تصلحُ الرعية إلا بصلاح الوالي، ولا تصلُحُ الولاة إلا باستقامة الرعية»[2]، وهذه الأفكار من الكاتب مجرَّدُ مطالعة أولية لجانب واحد من جوانب النظرية السياسية الإسلامية، وهي بطبيعة الحال بحاجة إلى تعمُّق لفهم مختلف مراحل تثبيت الشرعية والمشروعية من تنصب نظري للحاكم الشرعي حسب ما تُقرِّره الشريعة، ثم تفعيل صلاحياته من خلال بيعة الناس ورضاهم ودَعمهم، ثم رسم برنامج عمله الذي يكون فيه خادمًا لله من خلال خدمة الناس.

وفي نفس الوقت وضمن السياق نفسه، لم ينسَ الكاتبُ أنْ يسلِّطَ الضَّوء على حقٍّ أساسي آخر

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص.ص. 138-140.

2 - م.س.، ص152.

مهمٍّ من الحقوق السياسية وهو حقُّ المعارضة، الذي لا تكتمل مجموعةُ الحقوق إلا به.. حيث يُؤكِّد على أن السيرة العملية والنهج الفكري الذي صاغه الإمام، خلال تجربته السياسية، يُظهران أنه قد أقرَّ بالمعارضة السياسية كحق من حقوق الإنسان على الصعيد السياسي، إلا أنه عليه السلام رسم لها مجموعة من الشروط والآداب مثل عدم حمل السلاح ضدَّ الحكومة الإلهية الشرعية، وعدم التعرُّض لمصالح عموم المسلمين، وعدم فتنتهم عن دينهم.

الفَصلُ الرَّابع: الحُقوقُ الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة

وتنطوي تحتها كلٌّ من الحقوق التالية: حقوق المرأة - حقوق الأسرة والطفولة - حقُّ التعليم - حقُّ العمل والتملُّك - حقُّ الضمان الاجتماعي.. ويُفرِدُ الكاتب لكلٍّ منها مبحثًا خاصًا..

1 - حقوق المرأة

يُورد الكاتبُ أحاديثَ وروايات عديدةً عن الإمام علي عليه السلام حول قيمة المرأة ومكانتها العالية في فكر الإمام ونهجه وسلوكه، وضمان أن تعيش حياة حرة كريمة.. وقد منحتها قوانين الدولة التي نظَّم شؤونَها الإمامُ عليٌّ حقوقًا عديدة، بحسب ما يُبيِّن الكاتبُ، كحق صيانة حياتها ضدَّ ممارسات جاهلية مثل الوأد والقتل، وحق النفقة والرعاية ضمن نظام الأسرة، وحقِّ المشاركة السياسية (البيعة) والمشاركة الجهادية، والحقوق الاجتماعية والشرعية ضدَّ الممارسات الجاهلية مثل الحرمان من الميراث، وأكَّد على حقِّها في التملُّك وتمتُّعها بذمّة مالية منفصلة عن زوجها، حيث يُورِدُ الكاتبُ كثيراً من الروايات التي تُؤكِّد حقيقةَ ما توصَّل إليه من تكريم الإمام علي عليه السلام للمرأة، وضمان تجسيد حقوقِها كافّةً[1]، إلا أنه يجب تناوُل الروايات الواردة في الكتاب بدقة لوضع تصوُّر كامل حول تعريف حقوق ومسؤوليات المرأة ضمن النظام الاجتماعي الإسلامي، وعدم الانجرار وراء الخطاب والدِّعاية اللّيبرالية.

2 - حقوق الأسرة والطفولة

يشيرُ الكاتبُ إلى أنّ الإمام علي عليه السلام اهتمَّ بموضوع الأسرة وتكوين عائلة من خلال الزواج، وشجَّعَ عليه، وحَرصَ على إنجاحِ ظروف البناء الأسريِّ، من خلال تأمين «نفقات الزواج المالية،

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص258.

حيث يقول: 'لا تُغالُوا بمُهور النِّساء فتكون عداوة'، فقد رفَضَ الإمامُ المعيارَ المادي لقياس من يتقدَّم لخطبة المرأة، وعدَّ الاعتمادَ على هذا المقياس من بذور تحطُّم الأسرة مستقبلاً، وأعطى الإمام عليه السلام القدوةَ العملية بشأن إقامة الزواج بأبسط المتطلَّبات المادية، حيث تزوَّج السيدة فاطمة بأبسط جهاز للعرس وبأقلِّ المُهور»[1].

3 - حقُّ التعليم

وفيه أظهرَ لنا الكاتبُ في بحثه أنَّ الإمامَ علي عليه السلام كان نموذجًا يُحتذى في العلم والمعرفة على صعيد دعوته لطلب العلم والتزوُّد بالمعارف .. يقول عليه السلام: "مَنهومان لا يَشبعان طالبُ علمٍ وطالبُ دُنيا"... وأما عن أنواع العلوم فيُشير الكاتبُ إلى اهتمام الإمام بمسألة التَّعَلُّم والنشر، بقوله: 'العلمُ علمان: مَطبوعٌ ومَسموعٌ، ولا ينفع المَسموعُ إذا لم يكن مَطبوعًا'.. إنَّ تأكيد الإمام على العلم المَطبوع يُعَدُّ تطوُّرًا مُهمًّا في المنهجية العلمية آنذاك.."[2].

4 - حقُّ العمل والتّملُّك

يذهب الكاتب إلى أن الإمامَ علي عليه السلام يُكِنُّ للعمل المُنتج الصالح احترامًا عَميقًا، ذلكَ الاحترامُ انعكسَ على عدّة أوجُه، إذ يقول عليه السلام مُبيِّنًا بُعدًا إلهيًّا للعمل: "إنَّ اللهَ يُحبُّ المُحترِفَ الأمينَ"... «وأنَّ الإسلامَ هو دعوةٌ للعمل.. وحقُّ العمل لا يَعني في عُرف الإمام توفير مناخات العمل الحقيقي لأبناء المجتمع فقط، بل ضمان عدم استغلالهم فيه.. يقول عليه السلام في إحدى نصوص عهده إلى الأشتر: 'هذا ما أمرَ به عبدُ الله أميرُ المؤمنين، مالكَ بن الحارث الأشترَ في عهده إليه حين ولاه مصر: جَبْوَة خَراجها، وجهاد عَدوِّها، واستصلاح أهلها وعمارة بلادها..»[3]..

وأما عن حقِّ الملكية، فإنَّ الإمام علي عليه السلام ينطلقُ على هذا الصعيد الحقوقي من موقف إيجابي، وذلك انسجامًا مع الشريعة الإسلامية؛ إذْ وردَ عنه قوله عليه السلام: "المالُ والبنونُ حَرْثُ الدُّنيا والعملُ الصالحُ حَرْثُ الآخرة، وقد يَجمَعُهما الله لأقوامٍ"، ويفسر عليه السلام قوله -تعالى-: ﴿للذينَ أحسنوا الحُسنى وزيادة﴾ [يونس: 26]، والحُسنى هي الجنة، والزِّيادة هي الدُّنيا .. والإمام علي عليه السلام ليس لديه مشكلة مع الملكية الفردية، فالإسلام لا يَمنعُها، بل المشكلة تكمُن في أن

1 - غسان السعد: حقوق الإنسانِ عند الإمام علي، ص263.

2 - م.س.، ص294.

3 - م.س.، ص328.

يكون المسلمُ خاضعًا لملكية الأشياء .. «فإنَّ المعيارَ الأساسيَّ للحكم على الأشياء هو أثرُها في المحصلة النهائية لمسيرة الإنسان، والهدف منها.. لذا يقول عليه السلام: 'اللَّهمَّ أعوذُ بكَ من دُنيا تَحرمُني الآخرةَ' .. فالمالُ والثَّروة عند الإمام هي اختبار، إذْ يُفسِّر عليه السلام قولَه تعالى: ﴿**واعْلَموا أَنَّمَا أموالُكُمْ وأولادُكُم فتنةٌ**﴾ [الأنفال: 28] بقوله: 'معنى ذلك أنه سبحانه يَختبرُهم بالأموال والأولاد، ليَتبيَّنَ السّاخطُ لرزقه والرّاضي بقَسْمه، وإن كان سبحانه أعلَمَ بهم من أنفسهم، ولكن لتَظْهَرَ الأفعالُ التي بها يُستحقُّ الثوابُ والعقاب، لأنَّ بعضَهم يُحبُّ تَثميرَ الأموال ويَكرَهُ انثلامَ الحالَ'..»[1].

5 - حق الضّمان الاجتماعي

الإمام عليٌّ عليه السلام يَنظرُ له -كما يُبيِّن الكاتبُ- من مَنطلَق وَعيه للإسلام، ولشريعة الله -تعالى-، ومن منظور رؤيته للإنسان، وفلسفته للحياة، وسرِّ وجود الإنسان على هذه الأرض.. لذلكَ فقد فرضَ الإمامُ عليه السلام على الحُكّام والولاة والمُوظَّفينَ - في دولته - مساعدةَ المُجتمع وأفراده، لتحقيق الأهداف الإلهية، والأخذ بيده نحو الكمال والتحرُّر والرفاه .. ويتوسَّع الكاتبُ في تحليله لهذا الحقِّ، شارحًا معانيَه ومستوياته وكل ما يتَّصل به من أبعاد وضوابط ومعايير .. ويُشير الكاتب في ختام حديثه عن هذا الحق إلى تأكيد الإمام على هذا «المبدأ الجوهري في العلاقة بين المتطلَّبات المادية للحياة، التي استعرضنا جانبًا منها في حقِّ الضمان الاجتماعي، والشريعة الإسلامية التي يَعُدُّ الإمامُ التمسُّكَ بها هو الهدف الأول للإنسان في هذه الحياة، موجدًا عملية توازن وتكامل بينهما، حيث يقول عليه السلام: 'واعلَموا عبادَ الله، أنَّ المُتَّقين ذهبوا بعاجل الدُّنيا وآجِل الآخرة، فشاركوا أهلَ الدنيا في دنياهم، ولم يُشارِكْهم أهلُ الدُّنيا في آخرتهم، سكنوا الدُّنيا بأفضل ما سُكِنَت، وأكلُوها بأفضل ما أُكِلَت، فحَظُوا من الدُّنيا بما حَظِيَ به المُترَفون، وأخذوا منها ما أخذَهُ الجبابرةُ المُتكبِّرون، ثم انقلبوا عنها بالزّاد المُبَلِّغ والمَتْجَرِ الرابح .. لا تُرَدُّ لهم دعوةٌ، ولا يَنقص لهم نصيبٌ من لذة' .. لقد أسهمت الرؤية الواسعة والعميقة بين الدِّين والدنيا في تعزيز حقوق الإنسانية الاجتماعية والاقتصادية..»[2].

---

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص338.

2 - م.س.، ص396.

الفَصلُ الخامس: حقوقٌ إنسانية مهمة أخرى

في الفصل الأخير من الكتاب يبحثُ الكاتب في ثلاثةِ حقوقٍ أُخرى أساسية، هي حقُّ الكرامة الإنسانية، وحقُّ التقاضي، وحقوق الإنسان في زمن الحرب.

1 - حق الكرامة

يتحدَّد معيارُ هذا الحقِّ عند الإمام علي ﷺ انطلاقًا من النص القرآني والعقيدة الإسلامية التي كرَّمت الإنسانَ من خلال جعله خليفة لله في الأرض .. وجميع حقوق الإنسان التي دعا إليها الإمامُ علي ﷺ ما هي إلا انعكاس لتقدير الإمام للإنسان، وأحد الأساليب المهمة لرفع شأنه والسموِّ بمقامه، الذي يتكامل مع قوله ﷺ: «إنَّ اللهَ عز وجل خلقَ المُؤمنَ من نُورِ عظمته وجلالِ كبريائه، فمَن طَعَنَ على المُؤمنِ أو رَدَّ عليه قولَه، فقد رَدَّ على الله في عَرشِه».. ويُوصي ﷺ قائلًا: «لا تُحقِّرَنَّ أحدًا من المسلمين، فإنَّ صغيرَ المسلمين عند الله كبيرٌ» ...

وفي سبيل الحفاظ على هذه الكرامة، ومقام التكريم الإلهي للإنسان، نَهى الإمام علي ﷺ عن تناول أعراض الناس، ونشر عيوب الأفراد والجماعات.. إذ يُروى عنه ﷺ أنه قال: «إنَّكُم سألتموني في الرَّجلِ يَقولُ للرَّجُلِ: يا كافرُ يا فاسقُ يا حمارُ، وليسَ فيه حدٌّ، وإنمَّا فيه عقوبةٌ من السُّلطان». وقضى ﷺ أنّ «في الهِجاءِ التَّعزيرَ»، وإذا مسَّت الإهانةُ عرضَ الإنسان وشرفَه، فقد رُوي عن الإمام أنه قرَّر وجوبَ الحَدِّ عليه، فعَن عليٍّ ﷺ في الذي يقذف المرأة المسلمة قال: «يُجلَدُ الحَدَّ حَيّةً أو مَيِّتةً، شاهدةً كانَت أو غائبةً».. بما يعني أن الحفاظ على الكيان المعنوي للإنسان كان أحدَ الأهداف الرئيسة لحركة الإمام السياسية.

ويشيرُ الكاتب إلى أن تمثُّل كرامة الإنسان -في فكر الإمام علي- لا تتحقَّق فقط من خلال عملية الرَّدع والعقوبات، بل من خلال التربية السليمة للفرد.. فقد «ركَّزَ الإمامُ على عملية التربية النفسية للأمة، وتحقيق وتعزيز كرامتها، قائلًا: 'ساعةُ ذُلٍّ لا تَفي بعزِّ الدَّهر' .. وكانت سيرتُه العملية تؤكد هذا النهج، فقد قال لمن أقبلَ يمشي معه والإمامُ راكب: «ارجِعْ فإنَّ مَشْيَ مِثلكَ معَ مِثلي فِتنةٌ للوالي ومَذَلَّةٌ للمُؤمنِ».. بل إنه ﷺ قد تقبَّلَ الشكوى ضدَّ من يُقلِّل من شأن الإنسان -بغض النظر عن دينه وعِرقه- أو يمسّ كرامته ومشاعره، إذ أرسل إلى أحد ولاته مُنبِّهًا ومُستفسِرًا «أما بعدُ فإنَّ دَهاقين من أهلِ بَلَدِكَ شَكَوا منكَ غِلظةً وقَسوةً واحتِقارًا وجَفوةً..»[1].

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص406.

2 - حقُّ التقاضي

يُبيِّن الكاتب أن هذا الحقَّ -حقَّ التقاضي- هو من أهمِّ الحقوق التي دعا الإمام علي عليه السلام إلى ضرورة أنْ يَنعمَ الانسانُ بها، كون القضاء العادل هو انعكاسٌ مهم لحقِّ الإنسان في المساواة العادلة ... يقولُ الإمام عليه السلام في إحدى رسائله إلى الأمة: "من عبدِ الله عليٍّ أمير المؤمنين، أما بعدُ: فإنَّ اللهَ جعلكُم في الحقِّ جميعًا سواءً، أسودكم وأحمركم، وجعلكم من الوالي، وجعلَ الوالي منكم، بمنزلةِ الوالد من الولد .. وإن حقَّكم عليه إنصافُكم والتَّعديل بينكم" ... والتقاضي له شروط يجب أن تتوفَّر في القاضي المَنوط به مسؤولية تطبيق العدالة والمساواة من قبيل: العدالة، الفقاهة، طيب المولد .. والقضاءُ لا يَعني فقط وجودَ قاضٍ نزيه عادل، بل يجب أن يكون كلُّه مبنيًّا وقائمًا على معايير وضوابط أخلاقية ودينية وحقوقية أيضًا .. من هنا جاء «تأكيدُ الإمام عليٍّ على ضرورة تحقيق اكتفاء مادي ومستوى اقتصادي جيد للقضاة، وذلك لإزالة أي تبرير أو تسويغ أو دافع لأخذ رشوة في الحكم .. يقول عليه السلام حينَ سُئلَ عن تفسير قوله تعالى: ﴿**سمّاعون للكذبِ أكّالونَ لِلسُّحتِ فإنْ جاؤوكَ فاحْكُمْ بينَهُمْ أو اعْرِضْ عَنْهُم**﴾ [المائدة: 42]، قالَ: 'السُّحتُ في الآية الرّشا، فقيل له: في الحُكم؟ قالَ: ذاكَ الكفر..'.."[1].

3 - حقوق الإنسان في زمن الحرب

كثيرةٌ هي الغَزوات والحروب والمعارك التي شاركَ فيها، وكان على رأس قيادتها، الإمامُ علي عليه السلام .. وقد كانت له عليه السلام معاييرُ وضوابط شرعية أخلاقية دينية مُلزمة في كل ما يتعلَّق بإدارة الحروب والصراعات التي خاضها ويَخوضها غيرُه، والتي يمُكن تَسميتُها بـ «آداب الحروب» أو «حقوق الإنسان في الحروب» .. ويُبيِّنُ لنا الكاتبُ أنَّ «تأكيدَ الإمام على أهمية الجهادِ لم يكن يُوازيه إلا دعوةُ الإمام بوجوب الالتزام بالقانون الإنساني للحرب، الذي يُجسِّدُه بقوله: 'ما تُكافِئُ عدوَّكَ بشيءٍ أشدَّ عليه من أنْ تُطيعَ اللهَ فيه' .. وقد حفلَت خطَبُ ومواعظُ وحكم الإمام عليٍّ عليه السلام-فيما يخصُّ موضوعَ الحروب وشروطها- بالكثيرِ من الإشارات الواضحة واللَّفتات الحقوقية الإنسانية العميقة، والتعاليم الإسلامية الراسخة الدَّاعية لضرورة الالتزام بالجانب القانوني والقيم الإنسانية في زمن الحرب، وعلى رأسها قيمة العدل.. ولعلَّ من الأمورِ المُهِمّة على هذا الصعيد ما

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص428.

بيَّنَه الإمامُ من ضرورة توافُر المُسوِّغات الشَّرعية للحرب.. فقد «رفضَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام أنْ ينساقَ المجتمعُ وراءَ الأغراض السِّياسية أو الأطماع الشَّخصية للحُكّام، التي غالبًا ما تُغلَّف بمسوِّغات شرعية، لذلكَ فقد اشترطَ الإمامُ أنْ تتوفَّرَ في القيادة العليا - التي تُعلِنُ الحربَ - الضَّوابطُ الشرعية الأخلاقية، حتى يُقاتِلَ المسلمُ تحتَ رايتِها، وهو مُطمئِنٌ على الأهداف الحقيقية لشنِّ الحربِ من الناحية الشرعية، إذ يقولُ الإمام عليه السلام: 'لا غزوَ إلا معَ إمامٍ عادلٍ'.. و'لا يَخرُجُ المسلمُ في الجهادِ معَ مَنْ لا يُؤمَّنُ على الحكم، ولا يُنفذُ في الفَيء أمرَ اللهِ عز وجل، فإنْ ماتَ في ذلكَ كانَ مُعينًا لِعَدوِّنا.. ومِيتتُهُ ميتةٌ جاهليةٌ'..»[1].

وفي نهايةِ الكتاب يُسَجِّلُ الكاتبُ مجموعةَ نقاط يَعتمدُها، كخُلاصة واستنتاجات، تَوصَّل إليها، فيُشيرُ إلى «أنَّ الإمامَ علي عليه السلام يعدُّ تجسيدًا حيًّا للشريعة الإسلامية برافديها القرآن الكريم والسنة النبوية، مضافًا إليهما إبداعُ الإنسان المتميِّز في تطبيق النصِّ». ويُنهي الكاتبُ بحثَه بالتأكيد على ضرورة «إشاعة وتعميم تجربة الإمام علي عليه السلام ورؤيته لحقوق الإنسان، ببُعدَيها النَّظري والعملي، عبر نشرها والأخذ بها كمنهجِ عملٍ في المؤسسات الرَّسمية والدينية والاجتماعية في مجتمعنا..»[2].

خلاصة

وفي نهاية مراجعة هذا الكتاب (حقوق الإنسان عند الإمام علي عليه السلام - رؤية علمية)، يجب تسجيل الملاحظات التالية:

أولًا- هناك جهدٌ فكريٌّ مميَّز واضح بذلَه الكاتبُ في سبيلِ تفكيك موضوع البَحث القائم على إظهار وتحليل فكرة الحقوق عند الإمام علي عليه السلام، وإن كان الكاتبُ في كثير من المواضع متأثِّرًا بالخطاب الحقوقي الغربي، وحاول انتقاء بعض الرِّوايات وعرضها للتأكيد على وجهة نظره المسبقة.

ثانيًا- منهجيةُ البحثِ التاريخي تَقتضي من صَاحبها التوسُّعَ في دراسةِ وقراءة كثير من المراجع

1 - غسان السعد: حقوق الإنسان عند الإمام علي، ص453.

2 - م.س.، ص.ص. 483-484.

والمصادر التاريخية التي تُسلِّط الضَّوءَ على الأفكار المعروضة، وكيف تناولَها فقهاءُ المسلمين ومَرجعيّاتُهم، ونَرى أن الكاتب قد وُفِّقَ في عرض أفكار مُتماسكةٍ إلا أنَّ هناك بعضَ الأفكار كانت معالجتُها بحاجة إلى خلفية علمية فقهية وفلسفية (حوزوية).

ثالثًا- أهمُّ ما يمُكِن الإشادةُ به أنَّ الكتاب التفَتَ إلى جوهر فكرةِ الحقِّ عند الإمام عليٍّ عليه السلام.. حيث تكمُنُ قيمةُ وعظمة هذا الإمام في أنَّه نظرَ عميقًا إلى الدّاخل الإنساني، داخل ومحتوى النَّفس البشرية، وطرحَ إصلاحَ وتقويم الفرد كأساسٍ للبناء الحضاري الخارجي، في إطار السَّعي لإقامة مجتمعات العَدلِ والحرية والكرامة الإنسانية.